خصومة أدبية رضيت فيها الأدباء حكماً

زكي مبارك

يكتب كثيراً ولا يقول شيئاً

للأستاذ السباعي بيومي

— ٣ —

ما كنت أحب لك يا دكتور أن تكتب شيئاً مما سودت به مقال العدد ٣٩٨، ومعظم مقال العدد ٣٩٩ — بل كله كما ستعلم — لأنه ليس من الخصومة ولا الخصومة منه وليس بذي فائدة للقارئين. وما كنت أحب أن أجول معك في هذا الخروج لضيق الصفحات الأربع — المحدودة في الرسالة — عن أن تتسع له ولما أوعدت به من الهجوم عليك في زهر الآداب، لولا ما تعتقده من أنه في صميم الخصومة، وما أخشاه من أن تزين لك نفسك أنك به قد انتصرت

ولقد كان واجباً عليك وخيراً لك أن تنتظر كلمتي السابقتين ثم تكتب في الموضوع، ولكنك تعجلت ولم تستطع معي صبراً. والآن فالق جزاء تسرعك في الرد على ما ذكرت بمقاليك مما لم تتناوله كلماتي، مشفوعاً بطلبي منك ألا تعود إلى هذا الخروج، حتى نفرغ للخصومة الأدبية بالمعنى الذي تحمل ويريده الجمهور

تدعي أن صديقاً عزيزاً قال لك: «لم يرضني تحديك للأستاذ السباعي فقد كان ينفق في أحيان كثيرة أن يجعل مقالاتك من موضوعات الدروس بدار العلوم وذلك من شواهد الإعجاب». وأنك حفظت لي هذا الفضل وآثرت الصمت لولا أن أديباً أثارك بما كتب إليك. ويظهر يا دكتور أن هذا الصديق من الخبثاء الظرفاء الذين عرفوا فيك ما قرره ابن المقفع من أن عجب المرء بنفسه أرحب باب يدخل عليه منه الضاحك عليه والمضلل له. فهو قد أضلك وضحك عليك بما تخيل فتحققت، وما كان لشيء من مقالاتك أن يكون من موضوعات الدروس في دار العلوم، ولو حدث لما سميت دار العلوم

وتدعي أنك مع هذا كنت على نية السكوت لصداقتي ولأن هجومي لن يقلقل مركز الشيخ المرصفي، ثم لأني من زملاء الأستاذين هاشم وصفوت ولهما عليك حقوق؛ فأما الصداقة فما ينبغي أن تحول دون محاورة الصديقين فيما يفيدهما ويفيد الناس، وأما أن هجومي لن يقلقل من مركز الشيخ المرصفي فما قريب ستعلم أثره

وتذكر أنك في سبيل دفع الشر عن الشيخ المرصفي ستقدم لي خدمة أدبية بجذبي إلى الجدل على صفحات الرسالة، وأنا مرحب بدفع هذا الشر عن الشيخ، ولكن فيما صوبت أنا إليه؛ ثم إني لشاكر لك جذبي إلى التحرير وغير طامع في رفق أسلوبك، بل راغب ملح في أن تريني ما تزعمه لقلمك من أنه تطير عن أسلاته شظايا الشدة والعنف، حتى أعلمك — إن لم تكن علمت — أن مثل قلمك أمامي مثل بنادق الأطفال تسمع لطلقاتها دوياً ولا ترى لها كلماً. أما القلم الذي ستواجه مني فهو مسدس ذو طلقات تميت في غير جلبة ولا ضوضاء، وهأنت ذا قدحت زنده فاصل شرره

وتقول إن المرصفي قضى شبابه في خدمة الكامل، وأنني قضيت شبابي في خدمته كذلك، وإني لأكاد أكذبك في الأولى لأنك غير صادق في الثانية قطعاً. فما قضيت في تهذيب الكامل إلا ثلاث سنوات لا تستغرق شباباً ولا بعض شباب، ثم تتظرف وتحكم بأن الفرق بين الرغبة والتهذيب كالفرق بين المرصفي والسباعي. وإنه لحكم أعاد إلى ذاكرتي هذا البيت:

كأننا والماء من حولنا قومٌ جلوسٌ حولهم ماء

ثم تكذب ما قاله الطالب أيوب من أن كتاب المرصفي ظهر سنة ١٩٣٠ وتقول إنه ظهر سنة ١٩٢٧، فتكون سطحياً امام طالب، لأنك أخذت تاريخك من غلاف أول جزء في الكتاب والطالب أخذه من غلاف آخر جزء منه، فارجع إلى هذا الجزء رجوع الناقل الذي دل على أنه لم ير الكتاب، تجد عليه سنة ١٩٣٠ وهو التاريخ الحق الذي لا يعتبر في مجال الاحتجاج سواه. على أنك شعرت بتفاهة ما لحظت لأن كتابي ظهر سنة ١٩٢٣ فقلت: «وليس لهذا التاريخ أهمية» ولكنك عدت فوقعت إذ زعمت أن شرح المرصفي يرجع إلى أكثر من أربعين سنة، وأنه كان كاملاً من جميع الجوانب حتى الفهارس قبل سنة ١٩١٥ وأنك رأيته بعيني رأسك ورآه معك الشيخ الزنكلوني. وما رأيك يا دكتور أن المرصفي نفسه يكذبك في ذلك بعبارته المدونة في آخر جزء من أجزاء الرغبة عن إتمامه الشرح فما بالك بالفهارس، وهي بنصها: «وقد انتهى شرح كتاب الكامل

والحمد لله ليلة ١١ رجب سنة ١٣٤٠ من الهجرة » وهذه توافق سنة ١٩٢٣ ، أي أن الشرح وحده دون الفهارس لم ينته إلا سنة ١٩٢٣ لا قبل سنة ١٩١٥ . أليست هذه العبارة تفهم بصريح العبارة أنك كذبت على عيني رأسك ، وإذا كان لنا أن نتركك حراً تكذب على نفسك ، أفلا تؤاخذك أن تكذب على غيرك . ولكنك يا دكتور كنت لبقاً إذ تخيرت هذا الغير ممن انتقلوا إلى جوار ربهم ، وأنا جد واثق أن الشيخ الزنكلوني لو امتد به الأجل إلى حيث كتبت ما كتبت لأشهدت غيره من الأموات سامحك الله

ثم لك في هذه النقطة حشوة لا علاقة لها بالتواريخ، ولا هي من العبارات الشعرية كما تقول : تلك هي قولتك « ولن أنسى ما حييت تلك العبارة الشعرية التي صرخ بها الشيخ المرصفي وهو يقدم إلينا شرحه على كتاب المبرد — لن أنساها أبداً — فقد قال شيخنا العظيم وهو يخاطب المبرد (الله على أيامك يابطل) » وبعد ذلك تقول : « والكتاب الذي كمل من جميع نواحيه حتى الفهارس قبل سنة ١٩١٥ هو الكتاب الذي سرقت بعض فهارسه من كتاب ظهر في أواخر سنة ٩٢٣ » والآن فلتسمح لي يا دكتور أن أتركك وأخاطب الناس . أيها الناس يعجب الدكتور من أن الطالب أيوب لا يستبعد على المرصفي أن يكون قد استعان في كتابه الذي ظهر سنة ١٩٣٠ بكتابي الذي ظهر سنة ١٩٢٣ زاعماً أن كتاب المرصفي كان كاملاً من جميع نواحيه حتى الفهارس قبل سنة ١٩١٥ بالرغم من تكذيب المرصفي له كما سبق ومؤيداً هذا الزعم بآخر حاط من قدر المرصفي إن كان حقاً ، هو أن المرصفي لم يكن يطلع على شيء من مؤلفات المعاصرين فكيف اختص الأستاذ السباعي بتلك العناية . هذا ما يقوله الدكتور أيها الناس، وليس لي من تعليق عليه إلا الجملة التي ختم بها ما قال وهي « تلك والله إحدى الأعاجيب »

ويقول الدكتور عني بعد جعله المرصفي أوحد عصره بلا جدال « إنني الرابع أو الخامس بين أساتذة دار العلوم مع التسامح الشديد » ونحن أساتذة اللغة العربية بهذا العدد تقريباً في الدار فكأنه جعلني الأخير . والحقيقة يا دكتور أنك في تدخلك هذا غريب ؛ فما أنت فينا والفاضل والمفضول والأول والأخير أولئك إخوان فضلهم فضلي ومكانهم مكاني وكانا أعرف بحق صاحبه منه بحق نفسه .

وتقول إن الشيخ المرصفي أثر في عصره وتعدد له ذخائر كثيرة ، وليس لي رد على الشيء تعرفه أنت ويجهله غيرك . إني لا أعرف المرصفي إلا ما عرف الناس ولا أدعي لنفسي من آثاره إلا ما لمسوه . فسلهم لتعلم منهم أن عمري لم يكن موقوفاً على التهذيب ، ثم سل تلاميذي الذين تتحدث عنهم يخبروك بما يفحمك مخلصين صادقين وفخورين بتلمذتهم لي فخري بأستاذيتي لهم في غير زهو ولا إعجاب

ذاك ما جعلته طلائع غزوة وبه تباهى . فهل لا زلت على هذه المباهاة بعد تفسيق لما ذكرت وردي على ما سودت ومع هذا فاليك رأيي في تلك المباهاة نفسها

تقول إنك لن تصفح عني أو أشتغل محرراً متطوعاً بالرسالة ثلاث سنين ، وما هذا لي بالتهديد فما أنا ممن يضيرهم التحرير ولا ممن تعودوا أخذ أجر على ما يكتبون، لأني أكتب الكتابة لا طمعاً في مال، ولذلك يصدر ما أكتب في غير كلفة ولا إكراه.

وتقول إن خصومتك لي محنة صبت علي من شاهق وتطلب مني أن أتحملها صابراً ، وإنها لا تنتهي قبل بداية مايو ، وليس مثلك مني في هذا التهديد إلا مثل القبرة التي وقعت على رأس فيل ؛ فلما أرادت أن تطير قالت له إني مخففة عنك وطائرة فقال والله ما علمت بك نازلة حتى أشعر بتخفيفك طائرة . أما الموعد الذي ضربته فهو أمنية تتمناها وتشفق ألا تكون ، ولست أدري أتوافقك عليها مطمئناً أم أتجاوزها إلى ما بعدها مزعجاً، لن أبين لك حتى أتركك حينا تتعزى بالأجل إشفاقاً عليك وآخر تجزع لطول الأمد تهديداً لك. وسأعلمك في حاضري ومستقبلي أن ماضي لم يكن قائماً على خدمة الكامل وحده وأن تهذيبي له لم يكن عملاً يقوم به أحد النساخين بدراهم معدودات وذلك بما أفقك عليه من أنه كان خدمة يعرفها العارفون

وتزعم أنك قضيت دهرك ممتحناً بعداوات الرجال . ورجائي أن تكون رجلاً فيما أصبت به من عدائي وأن تتمالى في عدم العطف علي، ذلك الذي أزمعت تركه لأني ترديت لك ثوب العقوق، والحقيقة يا دكتور أنه لا عطف منك علي ولا عقوق مني إليك وإنما هو

نقاش وحساب يتطلب منك أن تكون الجلد الصبور .

ثم تقول إنك حكمت على بترك دروسي في دار العلوم لأشغل نفسي بمخاطرتك . ويلوح لي يا دكتور أنك ما قلت ذلك إلا لعقيدتك أن مخاطرتي لك تشغلني كما تشغلك مخاطرتك لي، ولكن عقيدتك هذه وهم باطل وظن خاطئ، فإن هجوي عليك وصدك لا يشغل مني كل أسبوع إلا الوقت يجري فيه القلم غير متوقف إلى حيث ينتهي المقال وهو وقت يسير في زمن اليوم لا الأسبوع، ثم هو لذيذ الوقع ترتاح لصريره النفوس .

وبعد فهأنذا مرقل نحو مقالك الأخير فماذا أرى ؟ رأيتك قد سودت أكثر من نصفه بأشياء خرجت فيها عن الجادة وجمعت بينها على الإكراه والقسوة ، فبينا تبدؤه بالرد على كلمتي الثانية قبل ظهورها بهذه الجملة التي لا تقدم ولا تؤخر في الموضوع فتقول عني في تبرئة نفسك من السرقة التي ألبستك طوقها : « فكان حاله حال اللص الذي رأى صاحب الدار يمشي من بعد فصاح : مين اللي ماشي هناك » ، ثم تعقب هذه بقولك : « إني أشعر بالارتياح كلما تذكرت أن عندي ذخائر يتطلع إليها الناهبون من الفضلاء » سبحان المنان الوهاب ! وعلى هذا الغرار من قرع طبلك تقول عني « فليواجهني إن استطاع وأنا ماض إليه بقلم أمضى من السيف وأعنف من القضاء » ، وستعرف أينا الذي لن يستطيع ، وأينا الذي سيكون قلمه أمضى من السيف . أما أن قلمك أعنف من القضاء فعاذ الله أن أشاركك هذا الكفران وقد علمت عن ابن دريد الذي تحدثت عنه في نظريتك المزعومة ، أن تلميذه أبا علي القالي قال : « لما أصيب بالفالج كنت أدخل عليه فيتألم من دخولي فأقول : إن الله تعالى لم يبتله بذلك إلا عقاباً على قوله يخاطب الدهر وليس الدهر إلا الله :

مارست من لو هوت الأفلاك من
جوانب الجـــو عليه ما شكا

إذا بك تنتقل إلى أن كامل المبرد على ما به من فضل قد حرف وصحف وصار في حاجة إلى إصلاح، وإني لن أكون المصلح المنشود لأني لم أوهب نعمة الذوق الأدبي التي لا يظفر بها من كل جيل إلا آحاد ، وأنت طبعاً من هؤلاء الآحاد إن لم تكن أوحدهم . ثم تقول كان المصلح المنشود له شيخنا العظيم سيد بن علي المرصفي وهو طبعاً من الآحاد الذين رزقوا نعمة الذوق الأدبي والآن أقدم للجمهور شيئاً من أشياء أعرفها للشيخ المرصفي برهاناً واضحاً على أن الذوق الأدبي كثيراً ما خانه في أبسط مظاهره ، ذلك الشيء هو أبيات جاء بها المبرد في الهجاء الموجع فجعلها المرصفي في شرحه من المدح البالغ . ولو كان المبرد يعلم أن ذوقه إلى هذا الحد لأنقذه وصرح بأنها هجاء . وها هي الأبيات وتحتها شرح الشيخ من غير تعليق (صفحه ١٣٢ ج ٤)

قال أبو العباس المبرد : ومما يستحسن من شعر إسحق هذا — يريد ابن خلف — قوله في الحسن بن سهل :

باب الأمير عراء ما به أحد ... إلا امرؤ واضع كفا على ذقن
قالت وقد أملت ما كنت آمله ... هذا الأمير ابن سهل حاتم اليمن
كفيتك الناس لا تلقى أخا طلب ... بفيء دارك يستعدي على الزمن
إن الرجاء الذي قد كنت آمله ... وضعته ورجاء الناس في كفن
في الله منـــه وجدوى كفه خلف
ليس السدى والندى في راحة الحسن

وإلى القارئين كل ما قال الشيخ المرصفي في شرحها بنصه وصورته ، قال — وقاه الله شر تلميذه الدكتور زكي مبارك — : « في الحسن بن سهل » بن عبدالله السرخسي وزير المأمون بعد أخيه الفضل بن سهل (باب الأمير) كأنه يريد أميراً غير الحسن (لا تلق أخا طلب الخ ...) . تريد إن استجديته أغناك ، فلا تجد غريماً يطلبك (ليس السدى) يريد إلا رجاء السدى ، وهو ندى الليل ، (والندى) : ندى النهار ضربهما مثلاً لجوده ، وقد أخر هـذا الاستثناء عن موضعه فتثقل ... انتهى شرح الشيخ ، فما رأيك فيه يا دكتور ، إن كنت ممن وهبوا نعمة الذوق الأدبي ؟ وهل لا تزال مصراً على أن المرصفي قضى حياته يراوح المبرد وينادبه بالنظر الثاقب والفهم العميق ؟ أما أني أتقول على المرصفي لأنه مات وشبع من الموت وهذا لا ينبغي ، فهي دعوى لو عمل بها في الأدب ، لمات الأدب وشبع من الموت كما تقول ؟

وإذا بك تقحم الدكتور طه حسين في الموضوع بأنه أتعب نفسه في النيل من دار العلوم ، ولم أغضب ، مع أني أستاذ بها ، وهذا غير ما كان يا دكتور ، فقد كتبت في الصحف والمجلات ، ولكنك لم تقرأ، كما لم تعرف ما ضحيته وما زلت مستعداً لتضحيته في سبيل الدفاع عن دار العلوم ؛ ثم توغل في الإفحام فتدعي أن علة سكوتي هي أن الدكتور طه يضر وينفع ، وبملك المحو والإثبات في أعضاء بعض اللجان ، وردي على هذه الأكذوبة عني وعن الدكتور أني لم أسكت ، ومع هذا كنت عضواً في اللجان ،

وما ذنبي إذا كنت أدعى وتترك ، وأعرف وتنكر ؟

فإذا بك تغادر الدكتور طه إلى الأزهريين ، تحط من قدرهم إذ لم ينصروك، وتسلبهم - كاذباً في الاثنتين - أبسط ما يعرف العلماء من أقدار الرجال فتقول : « لم يوجد في الأزهريين من يدرك قيمة الشيخ المرصفي غير الشيخ محمد عبده ، وبموت الأستاذ الإمام أصبح المرصفي من الغرباء » ؛ ثم تعود إليّ تتهمني بأني أريد الإعلان عن نفسي بالقدح في المرصفي ، وتطالبني بدفع ثمن هذا الإعلان بلا إمهال ، وما كان هذا القدح ولا ذاك الإعلان لي بمراد ؛ أما الثمن ، فأنا على نقده لك عاجلاً - كما تقول - ولكن فيما يبصر الناس بقدرك

ثم تشرد يا دكتور فتقول : « أنا أعرف أن دار العلوم مدرسة عالية ، لا يزورها أحد من المفتشين إلا إن ظمئ إلى فنجان من القهوة يحتسيه في مكتب العميد أو مكتب الوكيل » ؛ وتخرج منه إلى أن محاسبتي لذلك من السير ، والحق أني لست فاهماً ما تعني بهذا الشرود . أتريد أن يغير نظام التعليم ، فيدخل التفتيش إلى التعليم العالي قلباً لأبسط مبادئ التعليم ؟ أم تأمل إذا انقلبت الأوضاع أن تكون للمفتش لدار العلوم ؟ وإذا كورت الشمس وكان ما تريد، فهل تحملك رجلاك لتقوم بهذا الحساب ؟ أظنك على علم في كل هذه الأسئلة بالجواب ، كما أنك على جهل بأن الدرس الذي أعطيه في الجامعة الأمريكية ، إنما هو في قسم من أقسامها العالية — ولولا ذلك لم أعطه — هو قسم الصحافة والأدب ، وشأنه في ذلك شأن دار العلوم وسائر المعاهد العالية التي يشرف على الدراسة فيها : ضمير الأساتذة ورقابة الطلاب ، وما أدق تفتيش

وأخيراً تكثر من هذه الجملة « لا تشتمني يا سيد سباعي » معقباً إياها بتعاليل هي الأباطيل . فالشاتم أنت وأنا عن الشتم بعيد ، وإذا كنت تلحن لي في ذلك بأنك «شتيم» ، فأنا ألحن لك «بأني بشر ابن عوانة» . وهاك تعليلاً منها ليس من الشتم، ولكن الشتم منه هو قولك لي : « فما أملك محاسبتك لو أردت الانتصاف لنفسي ، وما ذا أقول في تجريحك ولست بشاعر ولا كاتب ولا مؤلف ولا خطيب » ؛ وأنا أقول إن لك في هذا أن تجاب :

فأما الشعر ، فلو رضيت لنفسي ما قلته كما رضيت أنت ما قلت، لسويته ديواناً كما سويت ، ولوقعت في الشرك كما وقعت ، فقد اغتررت في طبع ديوانك بضحك من غرّروا بك ، وخالفت قول من نصحوا لك ، وما ديوانك بشعر شاعر ، ولكنه تجميع ناظم

وأما الكتابة ، فها نحن في ميدانها على صفحات « الرسالة » تجول، وسيصدر الجمهور - إن لم يكن أصدر - حكمه فيها عما قريب

وأما التأليف ، فقد عرفت من عملي فيه تهذيب الكامل ، وستعرف غيره من مؤلفاتي متى انتهيت منه ، ونقاشنا فيه الآن ، فائت ولا تفر من الميدان

أما الخطابة ، فرأيي لك فيها يا دكتور أن تتلاقى في حلبتها أمام جمع من الأدباء وجمهرة من السامعين ويقترح على كلينا التكلم بداهة وارتجالاً في موضوع عام من أدب أو اجتماع ، فهنالك وهنالك فقط - ولست مزكياً نفسي ولكني مدافع عنها - تجد بحراً يغمرك ، وأمواجاً تقطعك وتهرك ، فتندم طالباً النجاة ولات حين مناص

إلى هنا أقف ، وقد طال الكلام ، مرجئاً الرد على ما وازنت فيه بين « الرغبة والتهذيب » وكل ما يتعلق بهما في المقال ، وذلك لأن دفعه - كما ستعرف - لا بد أن يسبق بكلمة مني عن الكتابين، تريك سوء ما زينت ، وهنيئاً لك الآن نفاد الصفحات دون بقية الرد والهجوم .

السباعي بيومي

مجالس السلطان الغوري

صفحات من تاريخ مصر في القرن العاشر الهجري

كتاب يتضمن كثيراً من الأحاديث والمجادلات التي دارت في مجالس السلطان الغوري ، وكانت هذه المجالس تجمع كبراء مصر وعلماءها يتحادثون في أمور شتى علمية وغير علمية ، ويتفاوتون الحديث بين الجد والفكاهة . وقد لخص هذه الأحاديث من نسختين كتبتا للسلطان وكتب مقدمة وافية في سيرة الغوري ومكانته في العلم والأدب :

الدكتور عبد الوهاب عزام

طبع الكتاب في مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر في أكثر من ٣٠٠ صفحة فيها صور وثمنه ١٢ قرشا